

مُبررات الغدائي إعلان موت النقد الأدبي في البيئة العربية؛ قراءة في الأسباب والتوافع"
Al Ghadhami's Justification for Declaring the Death of Literary
Criticism in the Arab Environment "A Reading of Motives and Reasons"

د. محمد أمين فارسي

Dr.Farsi Mohammed Lamine

تعليمية اللغات واللسانيات التطبيقية

المدرسة العليا للأساتذة -طالب عبد الرحمان- الأغواط (الجزائر)

Higher School of Teachers in laghouat (Algeria)

m.farsi@ens-lagh.dz

تاريخ النشر: 2026/09/02

تاريخ القبول: 2026/05/18

تاريخ الإرسال: 2026/03/15

ملخص البحث

إنّ ما تنغيّه هذه الورقة البحثية بلوغه وفق القراءة التحليلية هو البحث في مُبررات "الغدائي" وقت إعلانه لموت النقد الأدبي في البيئة العربية، ومناقشة الأسباب والتوافع التي جعلته يُحمّل الشعر العربي الضائقة الحضارية آخذين بعين الاعتبار أهمية مشروعه الذي نراه مبدئياً يفقد التماسك النصي وخاصة في ما يتعلق بالجوانب التصورية لنظريته. وبناءً عليه حاولنا أن نُثير جملة من التساؤلات التي تدور في فلك هذه الدراسة من بينها: ما مُبررات إعلان هذا الباحث موت النقد الأدبي في البيئة العربية؟ ولماذا ما أُنتج قبل صدور كتابه لا يدخل إلّا في نطاق نقد الثقافة؟ وهل كان على حق حين حمّل الشعر العربي أسباب هذه الأزمة؟

وقد انتهت هذه الدراسة إلى تسجيل بعض الهنات حتّى ولو عُدت مبادرة جريئة تستوجب التشجيع.

الكلمات المفتاحية: قراءة، مُبررات، الأدبي، أسباب، نقد، ثقافة.

Abstract :

What does this paper aims to achieve according to the analytical reading is to investigate the justifications of "Al Ghadhami" at the time he declared the death of literary criticism in the arab environment, and to discuss the reason and motives that made him carry Arab poetry the civilizational distress, taking into account the importance of this project ; wich we see initially lacks textual coherance, especially with regard to the conceptual aspect of his theory. Accordingly, we have tried to raise a number of questions that revolve around this study, including : What are the justifications for this researcher's

declaration of the death of literary criticism in the Arab environment? Then why what have been produced before the publication of his book only falls within the scope of literary criticism? Was he right when he blamed Arab poetry for the causes of this crisis?

This study ended up recording some shortcomings, even if it have been considered a bold initiative that deserves encouragement.

Keywords: reading, justifications, literary, reasons, culture, criticism.



مقدمة:

جاءت النظريات والمناهج النقدية كأداة لفهم الظاهرة الأدبية وإبرازها؛ إذ يُعتبر الأدب ظاهرة إنسانية وفكر يستدعي الإقرار بمتطلبات المنتج الإنساني أو بالأحرى المنتج الأدبي. حيث يُعدّ النقد الثقافي مدرسة نقدية مختلفة من حيث المعايير التي يُميّز بها كونه يدرس الظاهرة الأدبية من خلال إنتاجات الفرد والمجتمع وما يُحيط به، ومن ثمّ البحث عن الأنساق المضمرّة الموجودة داخل النصّ التي تُنتج المعنى وتُشكّله. لهذا فإنّ هذه الدراسة هدفها هو مناقشة أسباب ودواعي إعلان هذا الباحث موت النقد الأدبي في البيئة العربية، وانطلاقاً منه جاء تساؤلنا: ما مُسوّغات الباحث لإعلانه هذا الموت؟ ولماذا ما أُنتج قبل صدور مُنجزه لا يدخل إلّا في حيز الثقافة؟ وما الأسباب والدواعي التي جعلته يُحمّل شعرنا العربي الضائقة الحضارية؟

أولاً: إضاءة مدخلية: قراءة في التصوّرات والمفاهيم

يتأسّس النقد الثقافي أولاً بوصفه إعادة قراءة الخطابات الأدبية ثقافياً بالتركيز على القيم غير الأدبية التي يُخفيها العمل الأدبي منظوراً إلى الجمالي باعتباره فناً تمومياً، متوجّهاً تفكيك المضمرات الإيديولوجية الثقافية وراء الستار، ويفتح ثانياً بأفق أوسع على مختلف الممارسات الثقافية من حيث هي نصوصاً دالة وإن بدت خالية من القيمة الجمالية. فقبحيات النصّ التي تختفي وراء جالية اللغة غالباً ما ترسم علاقات ثقافية غير معلنة لتقول شيئاً آخر يختفي خلف اللّسق الجمالي والأدبي في صور كثيفة.

لهذا فقد أراد النقد الثقافي أن يُؤسّس لنفسه منهاجاً مغايراً، مُنتشياً في ذلك باستعانتة بالعديد من العلوم، مُتخذاً نفسه بديلاً عما كان يُعرف بالنقد الأدبي. وهنا نتساءل: أين ينتهي النقد الأدبي ليلبّد النقد الثقافي؟

1.1. النقد الثقافي في حدود المصطلح والمفهوم:

يرى 'فان دايك' أنّ النقد الثقافي "دراسة النصّ الأدبي بوصفه ظاهرة ثقافية -في إشارة منه إلى النقد الثقافي- يُعدّ تطبيقاً لدراسات سياقية تبدأ بالسياق التداولي، فالسياق المعرض، ثمّ السياق الاجتماعي والتفسي، وأخيراً السياق الاجتماعي الثقافي، وربط كلّ دراسة سياقية بهدف له علاقة بالنصّ الأدبي، تبدأ بالنصّ كفعل لغويّ، ثمّ بعملية فهمه وتأثيره، وأخيراً تفاعلاته مع المؤسسة الاجتماعية" (عليات، 2005، صفحة 34)

أما الأستاذ 'عبد الله الغدائي' فيرى أنّ النقد الثقافي يتعامل مع النصّ الأدبي "ليس بوصفه نصّاً جمالياً بل بمثابة نسق ثقافي يُؤدّي وظيفة نسقية ثقافية تضمّر ما هو مضاد للمعنى في النصّ الأدبي، ويقضي الجانب الجمالي ووظيفته الشعرية، لأنّه يؤدي إلى (العمى الثقافي) الذي لا يجعلنا نرى أن نكشف (الحيل الثقافية) التي يتوسّم بها لتبرير أنساقه المضرة، والنقد الأدبي هو الذي يُعنى بالجمالي والشعريّ في الأداء النصّي" (خليل، 2012، الصفحات 7-8)

إلا أنّ الباحث 'حفاوي بعلي' يرى بأنّه "نشاط وليس مجالاً معرفياً قائماً بذاته، وله مهمّة متداخلة ومتراصة، متجاوزة، ومتعدّدة، ممّا أحدث تغييراً مهمّاً في منهج تحليل الخطاب واستثمار المعطيات النظرية والمنهجية لحقول معرفية متداخلة كاللّغويات والسياسة والفلسفة والأدب والجمال والنقد والأثرولوجيا" (بعلي، 2005، صفحة 11)

ففي التعريف الأول إشارة إلى أنّ البحث يكون في النصّ الأدبي أو العمل الإبداعي، ومنه ينطلق ليستجلب أشياء قد تكون فوق نصّية، وهذا أمر مقبول عقلاً، ومتقبّل نقداً. أما التعريف الثاني فيحدّد من خلاله صاحبه أنّ النقد الأدبي في حقيقته عاجز عن ما يُسمّيه هو بالخلل الثقافي في الممارسة النقدية الأدبية. وبخصوص التعريف الثالث ففيه إشارة واضحة إلى أنّ هذا الوافد الجديد -النقد الثقافي- يستقلّ بذاته، له خصائصه التي تميّزه عن غيره من الأنشطة الأخرى؛ فهو يميّز بالحركة والنشاط، ممّا سمح له بإحداث ثورة جديدة في التعامل مع النصوص في العصر الحديث، لما لفتتاحه على المناهج المحيطة به. لذلك اعتبر النقد الثقافي حالة متجاوزة النقد الأدبي بل لا يعدو هذا الأخير إلّا أن يكون جزءاً منه؛ خصوصاً بعد الشمولية التي يطرحها وهذا أمر يمكن أن يضرّ بالعملية الإبداعية ودراساتها أكثر من أن يُضيئها. فكيف يرى الباحث 'عبد الله الغدائي' النقد الثقافي؟ ولم هذا الوافد الجديد باسمه؟

2.1. النقد الثقافي حسب رؤية "عبد الله الغدائي":

يرتبط النقد الثقافي في عالمنا العربي باسم الباحث السعودي 'عبد الله الغدائي'؛ فهو واحد من أهمّ نقّاد العرب الذين انهبوا بالنقد الثقافي العربي، ولا سيما لدى (فنسنيت بي ليتش)، ويظهر ذلك بشكل واضح في كتبه النظرية والتطبيقية كـ: "النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية" الصادر سنة (2000) وكتاب "تأنيث القصيدة والقارئ المختلف" الصادر سنة (1999)، وكتاب "نقد ثقافي أم نقد أدبي" الصادر سنة (2004)، وإذا أخذنا مُنجزه الأول نجدّه يُحدّد فيه مفهومه للنقد الثقافي، ويذكر أهمّ الخلفيات المعرفية التي كانت وراء ظهور مشروع "النقد الثقافي" عنده، مع التركيز على تأثره بأفكار (فنسنيت بي ليتش) باعتباره مؤسس النقد الثقافي في الساحة النقدية الأمريكية.

إلا أنّ الالف للظن أنّ الأستاذ 'عبد الله الغدائي' يقترح في كتابه، مصطلح (النقد الثقافي) كـ "آلية تحليلية للأنساق الثقافية العربية" (النجار، 2011، صفحة 39)، لأنّ تلك الأنساق تزرع في ذهن الإنسان العربي -عامّة- كلّ أشكال الحقد والبغضاء والكراهية، وتُثْمِي فيه التعصّب والالتصّات الفكرية الضيّقة ومن ثمّ التعامل بعنف وقسوة مع المخالفين. وينفرد النقد الثقافي حسب رؤية هذا الباحث عن النقد الأدبي بكونه يُحقّق أربع نقلات إجرائية من خلال النصّ وعملية التحليل والتمييز وهي في المصطلح ذاته، وفي المفهوم، وفي الوظيفة، وفي التطبيق. زيادة عن عنصر آخر رئيسي سَمّاه 'عبد الله الغدائي' ("العنصر النسقي") بالإضافة إلى العناصر الأخرى مثل: المجاز والتورية البلاغية الثقافية ونوع الدلالة والجملة التوعوية والمؤلّف المزدوج " (الغدائي، 2001، صفحة 65)

ولهذا فقد أصبح النقد الثقافي في العصر الحديث يشغل على مصطلح "الجملة الثقافية" متجاوزا بذلك المفاهيم التي كرسها النقاد والبلاغيون الكلاسيكيون مثل: "الجملة التحوية" و "الجملة الأدبية" والجملة الثقافية عند الدكتور 'عبد الله الغدائي' "مفهوم بمس الذبذبات الدقيقة لتشكل الثقافي الذي يقرر صيغه التعبيرية" (الغدائي، 2001، صفحة 73) وما يمكن أن يستشف من كلام هذا الباحث، أن تحرر القراء من هيمنة اللغة بمفهومها البلاغي القديم، هو في حد ذاته تحرر من التسق وإكراهاته، إضافة إلى أنه حد من هيمنته المتحكمة في المؤسسة النقدية بصفة عامة. فالتقد الثقافي ارتقى بمنزلة القارئ الناقد من مرتبة "الصانع الثقافي" (النجار، 2011، صفحة 6)، تتحكم فيه الأنساق المغلقة وتوجه حركاته، إلى مرتبة "المضمر الفاعل والمنهج الفاحص" (النجار، 2011، صفحة 3) لكل التصوص وفق آليات منهجية صارمة. وهذا لا يمكن له أن يتحقق دون الانتباه إلى جملة من المفاهيم التي أوردها هذا الباحث في نظرية النقد الثقافي.

إلا أن ما نرغب في الإشارة إليه هو أن النقد الثقافي يؤدي وظائفه عبر الاستعارات، لكن ليس بمفهومها اللغوي البلاغي، وإنما بدلالاتها الواسعة الشاملة لختلف فروع المعرفة الإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الأدب وعلم السياسة... إلخ. ولعلّ الملاحظ أن الأفكار التي كانت تُصنّف في خانة المسلمات ضمن النقد الأدبي، قد غدت موضع شك وتساؤل مثل المحاكاة والتخييل والرمز على حدّ تعبير الباحثة 'عليّة التجار'، التي ترى أن "هذه المسلمات عاجزة على تحليل الظواهر بمفهومها الشمولي، رغم قدرتها البسيطة على تحليل الظواهر الأدبية أو الفكرية التي أنتجها النقد التقليدي المؤسسي" (النجار، 2011، صفحة 11). لذلك انطلق هذا الباحث من مسلمة أساسها أن "الثقافة العربية والإسلامية يتحكم فيها بناء نسقي متكامل العناصر ومتداخلها، يخلق حسا استسلاميا غير نقدي لدى جمهور الثقافة" (الغدائي، 2001، صفحة 60). من هنا نطرح السؤال التالي: ما مبررات إعلان الدكتور 'عبد الله الغدائي' موت النقد الأدبي في البيئة العربية؟

ثانيا: مبررات إعلان هذا الباحث موت النقد الأدبي:

يتمّ النقد الثقافي بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بصفة عامة. وهو فرع من فروع النقد النصّي - كما الشأن للنقد الأدبي - معني بالكشف عن الخصائص الجمالية لكل خطاب، وتحليل الأسرار الخبوءة تحت أقنعة البلاغي والجمالي ورصد المقاصد القريبة والبعيدة لصاحبها.

وهنا يمكن أن نستحضر تلك العبارة الشهيرة "الشعر ديوان العرب"، أين استأنس بها هذا الباحث باعتبارها من وجهة نظره "جرثومة مستترة بالجماليات أفرزت نماذج في كلّ تحليلاتنا الثقافية والاجتماعية" (الغدائي، 2001، صفحة 33). وقد جمع هذا الباحث في مشروعه النقدي، غصارة قراءاته الزائدة وبحوثه المتواصلة الفاحصة لنسبي الأدب العربي: شعره ونثره، ولا سيما ما صيغ من حكايات في فنّ المقامات والأمثال.

من هنا يمكن التساؤل عن وظيفة هذا البديل الذي غدّ من أهم مبررات القول بموت النقد الأدبي ووجوب اعتماد هذا الوافد الجديد كخيار أمثل، إلا أن القول بموت النقد الأدبي طرح عديد التساؤلات عن المنجز الثقافي الذي أفرزه هذا النقد وطُرحت معه إشكالية حلول النقد الثقافي محلّ النقد الأدبي بالتساؤل: "ألّ يكون في إحلالنا له محلّ النقد الأدبي إلغاء لذلك المنجز السابق وليس إضافة له؟" (خالد، 2002، صفحة 164). والظاهر أن النقد الثقافي لم يكن دعوة لموت النقد الأدبي بل هو دعوة إلى إحياء ما مات منه بطريقة حديثة وحضارية، وذلك بتجاوز الوقوف عند جاليات النصّ،

والغوص في أعماقه كشفنا لخبوء دعواته الثقافية. ولهذا فإن موت النقد الأدبي يجعلنا نتساءل: ما هي البدائل التي أوجدها هذا الباحث لتعويض وظائف النقد الأدبي، ولا سيما في بيئتنا الثقافية العربية؟

1.2. فكرة الثنائيات الضدية:

بداية يمكن القول: إن ما ورد في أمهات الكتب النقدية العربية "لم يتطور إلى نظرية ثقافية ناقدة للخطاب العربي وكاشفة لأسناقه، ومضمراته، أي أنها لم تصل إلى مستوى إنشاء (علم العلل) في نقد الخطاب الشعري، فظلّ الشعر أحد مصادر الخلل التسمي في تكوين الذات وفي عيوب الشخصية الثقافية التي أصبحت نمطية من خلال شخصية "الشحاذ" البليغ (الشاعر المداح) وشخصية المنافق المثقف وشخصية الطاغية مع الأنا الفحولية أو مصطلح (فحول الشعراء)، وشخصية الشرير المرعب (الشاعر الهجاء)" (النجار، 2011، صفحة 9)

لذلك اقترح الدكتور 'عبد الله الغدائي' وأصل لفكرته البديلة نظريا ومعرفيا، فبدأ كتابه المكوّن من سبعة فصول بالتأريخ لمصطلح النقد الثقافي، وكيف بدأت الدراسات الثقافية ثم شرح النظرية، وعرض المنهج الخاص بها، وحدّد مفاهيم مصطلحات النقد الثقافي التي اعتمدها في تحليل نظريته متوسّلا إلى ذلك بالتطبيق الإجرائي خلال أربعة فصول.

إذاً وبناءً على ما ورد في هذه العبارات، فهي تُشير وحسب وجهة نظرنا على وجود رؤية نقدية فلسفية مغايرة، تُعبّر عن التحوّلات الحاصلة في مجال 'ما بعد الحداثة'، خصوصا ما تعلق منها بتجاوز المركزية والأحادية، صوب الاختلاف والتنوع مع التأكيد على وجوب توجيه الثقافات ومن ثمّ البحث في ما صار يُعرف بالهامش الثقافي، وهذا ما كان قد أغفله النقد الأدبي سابقا، على حدّ هذا التصريح "لقد أدّى النقد الأدبي دورا تمّحيا في الوقوف على جماليات النصوص، وفي تدريبنا على تذوق الجمالي، ونقل الجميل الصوتي، ولكنّ النقد الأدبي مع هذا وعلى الرغم من هذا أو بسببه أوقع نفسه وأوقعنا معه في حالة من العمى الثقافي التام عن العيوب التسمية المحتبئة من تحت عباءة الجمالي (....) وليس القصد هو إلغاء المنجز التقدي الأدبي وإثبات الهدف هو تحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره بغض النظر عن عيوبه التسمية إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أسناقه" (الغدائي، 2001، صفحة 9). ولمزيد من التفصيل نقف على فكرة الثنائيات الضدية.

1.1.2. ثنائية: الجميل الشعري/القيح الثقافي

إنّ ما يفهم من التصريح السابق أنّ هذا الباحث ومن هذا المنطلق يفتح الثغرات (الفجوات) في الثقافة العربية، ويُعدّد منافذه إلى القديم لقراءته بأدوات حديثة تُزاوج بين التراث، الحداثة والمعاصرة. أين يشدّ انتباهه منصف مستهلّ مُنجزه قائلا ومتسائلا في الوقت نفسه: هل الحداثة العربية حداثّة رجعية؟ وهل جنى الشعر العربي على الشخصية العربية؟ وهل في ديوان العرب أشياء أخرى غير الجماليات التي وقفنا عندها مدّة قرون؟ وهل هناك أنساق ثقافية تسربت من الشعر لتؤسّس لسلوك غير إنساني وغير ديمقراطي، وكانت فكرة الفحل وراء تأسيسها؟ وهل للنقد الثقافي كبديل عن النقد الأدبي أن يكشف لنا عمّا ظللنا في عمى عنه؟

بداية يُمكن القول: إنّ المتأمل لمشروع هذا الباحث يرى أنّه كان يريد إيجاد مُبررات وحجج كي يُعلن عن موت النقد الأدبي في البيئة العربية من خلال توظيف أدوات النقد الثقافي حين قارب النصّ الشعري العربي متناسيا أو متجاهلا أنّ هذا النصّ شكّل ولا يزال يُشكّل المكوّن الأساس في تشكيلة ثقافتنا العربية، وهو بذلك يكون قد قلب المعادلة التي

تقول: إنّ طبيعة النصّ هي من تفرض المنهج، إلّا أنّه في المقابل "كأنّ مشروعه لا يتحصّل على مصداقية ما لم يتمّ بمرجعية الآخر، ولذلك بدا الجانب التطري من المشروع الغدائي ملحقا بكتابه، بل يبدو نابيا" (صفي، 1986، صفحة 183). لهذا يستقف على نماذج من شعرنا العربي، فقد كرس الشعراء العرب القدامي، فيما كثيرة في الغزل والفخر بالأصل القبلي والتغني بمكارم الميت، أو تشويه العدو والتنكيل بصورته على نحو مخصوص دفاعا عن شرف القبيلة. فهذا 'عمرو بن كلثوم' يتفخر بالقوة والجبروت والاستبداد حين قال (الروزي، (د.ت)، صفحة 45):

إذا بلغ الفطام لنا صبي
تخزّ له الجبابرا ساجدينا.

أما الشاعر 'زهير بن أبي سلمى' فقال (الروزي، (د.ت)، صفحة 20):

جرّيتي متى يظلم يُعاقب بظلمه
سريعا وأنا يدي بالظلم يظلم.

وأما الشاعر 'عنتر بن شداد' فقال (الروزي، (د.ت)، صفحة 35):

هلا سالت الحيل يا ابنة مالك
إن كنت جاهلة بما لا تعلّم
يُخبرك من شهد الواقعة أنّي
أعشى الوغي وأعف عند المغم.

بينما الشاعر 'طرفة بن العبد' قال (الروزي، (د.ت)، صفحة 40):

لحولة أطلال برقة نهمد
تلوّح كباقي الوشم في ظاهر اليد.

ولعلّ المتأمل لهذه الأبيات الشعرية سيجد أنّ المشترك بينها أنّها تتغنى بالقيم السمحاء التي توارثها العرب قبل مجيء الإسلام، وأنّ الآفة للنظر هو الخطاب التسقي بصفة عامّة قد ورث قيم القبيلة التي زرعها الشعر وخلّدها، وتحوّلت إلى قيم فردية، بل غدت فيما نمطية في شخصية الإنسان العربي. وبمأنّ التسق هو نسق التأثير لا نسق الإقناع فإنّ الذات العربية قد تمّ تدجينها حتّى تقع تحت تأثير الانفعالات المتواصلة تلبية للعواطف والأهواء أكثر من الاستجابة للتفكير المنطقي والعقلي؛ لأنّ الذات العربية "صارت كأننا شعريا تسكن الشعر ولا تتحرك إلّا بسبب المعنى الشعري الذي تطرب له غير عابئة بالحقيقة، وما كانت الحقيقة -يوما ما- قيمة شعرية" (الغدائي، 2001، صفحة 105).

تأّ أدى إلى انغلاق الذات العربية على نفسها، وإتاحة المجال أمام النقاد والدارسين "لتصوير الشخصية العربية والإسلامية تصويرا نمطيا وعصايا، والإساءة إليها" (بوجدية، 2000، صفحة 221). وإذا ما وقفنا عند فكرة نعتة الخليفة الراشد 'عمر بن عبد العزيز' بأنّه أول ناقد ثقافي برفضه أن يكون طاغية سياسيا يصنعه الشاعر 'جرير' من خلال مدّ حياته. إضافة على أنّه يرى أنّ الشعر أو ما يُسمّى (ديوان العرب) هو من أدّى إلى شعرة الأفكار والسلوكيات لنا فإنّ هذا الباحث يُريد من النقد الثقافي، أن يقوم بوظيفة فك الارتباط بين المؤثر والمتأثر بين سلبية التور الذي قام به الشعر والشخصية العربية ومن خلال ذلك يُقرر أنّ الوظيفة التقليدية للنقد قد رسّخت تلك العلاقة.

إلّا أنّ النقد القديم -ونعني هنا الوظيفة- توقّف عند حدود الاستحسان الجمالي والتظرة الجزئية فلم يتعداه. وهنا يفرض السؤال نفسه: هل دراسة النقد الثقافي تُفيد قَبولا مطلقا بالثقافة العربية؟ وهل ثقافة الآخر شرّ غير محض يجب القطيعة معها؟ وهل بإمكاننا تحقيق ذلك؟

2.1.3. ثنائية نقد التصوص/نقد الأنساق:

إن اختيار هذا الباحث للنص الشعري العربي (قديمه، حديثه ومعاصره) يكشف عن محبوه نسقي من مضمرات الحدائين العرب في تعاملهم مع التراث العربي بعامة والشعر منه على وجه الخصوص، وهذا المضمر مازال مهيمنًا على فكر الدكتور 'عبد الله الغدائي' منذ مشروعه الألسني وهو مختبئ يحضر في كتابات الحدائين وقراءاتهم للتراث بحيث تصبح العودة إليه مقولة تبريرية لتأكيد شرعية الحاضر. وإيجاد سياق تداولي للنقد الثقافي في البيئة الثقافية العربية.

1.2.1.3. معنى حقيقي/معنى مجازي:

النص الأدبي يمتاز بخاصيته الشعرية، التي تُكسبه صفة الأدبية خصوصًا في مجال الشعر؛ وذلك عبر سعي الشاعر إلى خلق نوعا من التوازن البلاغي والإيقاعي بين مفردات القصيدة الأمر الذي جعل هذا الباحث يقول: "والشاعرية بهذا، تتولّى تمييز النص الأدبي عن (الرسالة) وبمجرد أن يُولد هذا النص مُحتملاً بالشاعرية، يطير معها بعيدا عن المرسل، ويتم عزل (الرسالة) عن مرسلها وتنقطع الرابطة بينهما" (الغدائي، 2006، الصفحة 26). وبالتالي ينحرف النص عن المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي؛ لذلك نجد البلاغة العربية، تولى عناية كبيرة إلى التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها. وقد قدّم نماذج ذكر منها على سبيل التوضيح، تشرجه لقصيدة الشاعر 'عمرو بن كلثوم' القادر على الفكك بالأعداء والظالمين. وقد استدلل هذا الباحث ببعض أبياتها حيث يقول في هذا السياق (الزوزني، (د.ت)، صفحة 42):

لنا الدنيا وَمَنْ أُضْحَى عَلَيْهَا وَبَطِشُ حِينَ نَبِطِشُ قَادِرِينَ
بُعَاةٌ ظَالِمِينَ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكِنَّا سَنَبْدُ ظَالِمِينَ
أَلَا يَجْهَلُ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ.

فإذا نظرنا إلى ما قاله هذا الشاعر في سياقه الثقافي، الذي تولّد عنه، فهو كلام وفق "الأنا الشعرية" التي تولدت عن القبيلة التي نشأ فيها صاحب القصيدة والتي ميزتها التضخم ونفي الآخر وإقصائه، حيث إنَّ الفحولة تُصنّف أعلى الهرم الطبقي تتضخم فيها صورة الفحل. وفي هذا يرى هذا الباحث "أنَّ التسق الشعري كان مسؤولاً عن عيوب الشخصية الثقافية الجاهلية والإسلامية، فهو الذي اخترع مفهوم الفحولة في إطار شعر المدح الذي رسخ كلّ أشكال الأناية والجنون الدّاتي" (الغدائي، 2001، صفحة 42).

ولهذا فهو يرفض هذه النظرة الفحولية القائمة على تضخم "الأنا"، وما يُصاحبها من كذب وزيف، لأنَّ "الفحل، هو صياغة شعرية في الأصل، ولكنه يُحوّل، ليكون أنموذجاً شعرياً واجتماعياً وسياسياً، ولم يعد مجرد قيمة مجازية شعرية" 26. من هنا تحمّل الشعر والنقد الأدبي العربي الضائقة الحضارية أين استدل بالكثير من الأبيات الشعرية والقصائد منها قصائد "الأخطل" و"الفرزدق" و"المتنبي" وغيرهم، وفقاً لذلك أكدَّ أنَّ "القصيدة تضع منظومة قيم كعلامة نمطية نسقية ومنه انغرس التسق الشعري، هذا التسق الذي نجده في الخطاب الشعري القديم والحديث والتجديدي، نجده عند الفرزدق وجبر وأبي تمام والمتنبي، مثلاً نجده عند نزار وأدونيس بل نجده في الخطاب العقلاني، كما نجده في الخطاب الشعري والخطاب السياسي والخطاب الإعلامي" (عبد الله الغدائي، عبد النبي اصطياف، 2004، صفحة 43).

لقد ترسّخ هذا النموذج النمطي بفضل تضافر عوامل كثيرة ومتنوعة كعمل التربية الثقافية التي عمدت على تكريس فكرة "الأسلاف" والتعامل مع إنتاجهم بقداسة، لأنَّ ما فعله الآوائل هو أرقى وأشدّ تأثيراً من كلّ ما فعله اللاحقون. وهذا ما عمل النقد الثقافي لحمايته وصونه من الضياع، فانتشر الحفظ وضاع التأويل وكثر الشرح والمفسرون في المقابل قلَّ فنُّ النقد والكشف. لهذا فإنَّ التمازج الذهنية التي شكلتها الأنساق الثقافية للطائفة من خلال بيان سلوكاته وأخلاقياته، لا يمكن لها أن تضع اعتباراً للآخر؛ لذلك تراه يسعى دوماً إلى اتباع سياسة التهميش والاحتقار، ولعلَّ في ذلك تعارض كبير مع القيم السّمحاء التي نادى بها القرآن الكريم.

3.1.2. الحيل الثقافية:

يُحاول هذا الباحث من خلال نقده الأنساق الثقافية التي درسها في منجزاته سواء أكانت شعرا أم نثرا مثل قصائد "حمزة شحاتة" في مؤلفه (الخطيئة والتكفير) أو قصائد "نزار قباني" في كتابه (النقد الثقافي) أو "قصص ألف ليلة وليلة" في كتابه (اللغة والمرأة) وغيرها، أن يوضح لنا من زاوية الناقد الثقافي المنظر والممارسة، كيف أن الأنساق المضمرة في الثقافة، تمارس 'حيلها الثقافية' لتعمل على نشر ثقافة 'الوهم'، حين يقول: "حينما تدفعنا خطانا إلى البحث في الأنساق الثقافية سنكتشف أننا نقرأ التاريخ البشري والسيرة البشرية، بوصفها حالا من التفكير في المفاهيم والمصطلحات، وسنرى أن المسار البشري هو مسار تحكمت فيه المنظومات المفاهيمية والمصطلحية، وكأنا التاريخ البشري هو تاريخ في المصطلح والمفهوم" (الغدائي، 2009، صفحة 15).

وهنا نقف على ما يُسميه 'التورية الثقافية' وهي "مصطلح يتميز بالدقة والإحكام، وهو في المعهود منه يعني وجود معنيين أحدهما قريب والآخر بعيد، والمقصود هو البعيد، وكشفه هو 'لعبة بلاغية منضبطة'، ونحن هنا نوسع من مجال التورية لا لتكون بهذا المعنى البلاغي المحدد، ولكننا نقول بالتورية الثقافية. أي: إن الخطاب يحمل نسقين، لا معنيين وأحد هذين النسقين واعي والآخر مضمّر" (أرزويل، 1987، صفحة 43). ولهذا يظلّ مفهوم النسق مفهوما مركبا، وهذا النسق يلعب في حقيقته لعبة "التورية الثقافية". ومنه وبناء عليه، فإنّ النقد الثقافي ليس بحثا في الثقافة بل هو بحث في أنساقها المضمرة وفي مشكلاتها المركبة والمعقدة، وبهذا يبتعد النقد الثقافي عن الأدوات المنهجية المستخدمة في النقد الأدبي.

ولقد طرحت فكرة القول بموت النقد الأدبي عديد التساؤلات عن المنجز الثقافي الذي أفرزه هذا النقد وطرحت معه إشكالية حلول النقد الثقافي محلّ النقد الأدبي بالتساؤل: "ألن يكون في إحلالنا له محلّ النقد الأدبي إلغاء لذلك المنجز السابق وليس إضافة له؟" (خالد، 2002، صفحة 164)، فالإجابة عن هذا التساؤل في رأينا هي: إنّ النقد الثقافي كبديل لم يكن دعوة لموت النقد الأدبي بل هو دعوة إلى إحياء ما مات منه بطريقة حديثة وحضارية، وذلك بتجاوز الوقوف عند جماليات النصّ والغوص في أعماقه كشفاً لمخبوء دعواته الثقافية عن طريق الخروج من رتابة المعالجة النصّية وتوظيف قدرات التحليل، والاستفادة من مختلف التخصصات، لمعرفة كنه الأنساق الثقافية القابعة خلف النصّ الأدبي.

وهو كان محلّ حوار بين الباحثين 'عبد الله الغدائي' و'عبد النبي اصطيّف' عند تساؤلها عن هذا الوافد الجديد: هل هو نقد ثقافي أم نقد أدبي؟ "ولعلّ هذا الحوار القائم بين الرجلين يهدف إلى نوع من التواصل الفكري والحضاري بين الآراء المتضادة، ولكن للأسف هناك هوة في الحوار مفادها انعدام التواصل في فهم الحدود الفاصلة بين مفهومي (النقد الثقافي) و(النقد الأدبي) وإيجاد نوع من المقاربة بينهما" (خليل، 2012، صفحة 7). وبالتالي فإنّ أسباب طرح هذا الباحث لمشروعه الجديد يعود إلى اطلاعه على الممارسات النقدية العربية.

وحسب رأينا أيضا لم يكن النقد الثقافي نتاج الفعل الثقافي العربي، ولا وليد ممارسات نقدية حثمت وجوده، وإنما لا يعدو هذه التفاصيل أن يكون تبعا للنتاج النقدي العربي حتى إنّ بعض الآراء النقدية ترى أنّ النقد الثقافي ما هو إلا الوجه الآخر للنقد الاجتماعي لتطابق دلالات كلّ من الثقافة والمجتمع لدى هؤلاء فقد "كان النقد الثقافي الذي اتّسمت به مدرسة مثقفي نيويورك يُوصف باسم (النقد الاجتماعي)، لأنهم يستعملون مفهومي المجتمع والثقافة كمفهومين مترادفين" (فلسنت، 2000، صفحة 103).

ومهما يكن من أمر فما كان مصدر قوة النقد الأدبي صار هو عين ضعفه، بل اعتبرها هذا الباحث مصدر خللنا الثقافي مما حال بيننا وبين الكشف عما وراء جالية التصوص، إذ شكل الوقوف عند جاليتها عمى ثقافيا استوجب القول بموت النقد الأدبي وعجزه عن إدراك حدود التقصير. وذلك بعد تماثل الرؤى النقدية التي خلقت حالة من التكرار في نتائج الدرس النقدي.

1.3.1.3. سؤال النسق بديلا عن سؤال النص:

إن المفترق الجذري بين النقد الأدبي والنقد الثقافي هو هذا السؤال، أين تُصبح التصوص ليست إلا حوامل تحمل هذه الأنساق ويطلق عليه هذا الباحث اسم النسق المضر في النص، وهو تقيض النسق الدال والبلاغي الذي هو تكوين دلالي إبداعي من معطيات النص جلي في وعي الباحث والمبدع، على عكس النسق الثقافي المختبئ جيدا وراء جاليات النص.

إلا أن الألف للظن هو أن هذا الباحث قد أضاف مصطلح "النسق" إلى العناصر الستة للتمودج اللغوي؛ لذلك فإن هذا التحول في الفعل النقدي يُعدّ نقلة نوعية من حيث إنه قد أضاف ستة اصطلاحات أساسية، هي على التوالي: عناصر الرسالة (الوظيفة النسقية) والمجاز (المجاز الكلي)، والتورية الثقافية، ونوع الدلالة والجملة الثقافية، والجملة النوعية، والمؤلف المزدوج.

إلا أنه وحسب ما نراه قد أجرى تعديلا على هذا التقسيم إذا ما قارناه بما قام به 'رومان ياكسون' يتمثل في العنصر السابع وهو (العنصر النسقي) والذي يتحدث عنه قائلا: "إذا سلمنا بوجود العنصر السابع (النسقي) ومعه (الوظيفة النسقية)، فإن هذا يجعلنا في وضع نستطيع معه أن نُوجه نظرنا نحو الأبعاد النسقية التي تتحكم بنا وبخطابنا مع الإبقاء على ما ألفنا وجوده، وتعودنا على توقعه في التصوص، من قيم جمالية وقيم دلالية" (الغدائي، 2001، صفحة 65).

ويمكننا أن نُحدّد مفهوم النسق الثقافي بأنها "نظم بعضها كامن وبعضها ظاهر في أية ثقافة من الثقافات وتتفاعل في هذه النظم العلاقات المجازية عن التذكير والتأنيث الثقافيّتين، والعرق والدين والأعراف الاجتماعية، والقيود السياسية والتقاليد الأدبية والطبقية وعلاقات السلطة التي تحدّد المواقع الفاعلة للذوات، وهذه النظم ذات صلة وثيقة بإنتاج الخطاب الإبداعي والفكري وطرائق تلقيه" (الكمي، 2005، صفحة 8).

خاتمة:

دار صراع النقد الثقافي حول قضية واحدة تمثلت في البحث عن النسق المضر القابع خلف الظاهر في الخطاب مع استبعاد نتائج النص الأدبي التي تدور في فلك البحث عن الجمالي وإبرازه والتمثيل له، وبذلك شكل هذا الوافد الجديد نشاطا إجرائيا في الأساس هدفه الأنساق الثقافية التي تعكس مجموعة من السياقات الثقافية والتاريخية والاجتماعية والأخلاقية والإنسانية والقيم الحضارية بل حتى الأنساق الثقافية الدينية والسياسية، لذلك يمكن أن نخلص في نهاية هذا البحث إلى جملة من النتائج نوجز أهمها في:

1- إعلان مشروع النقد الثقافي والذي سعى إلى تجاوز البحث في جاليات النص الأدبي والتظنر إليه في ضوء الثقافة التي أنتجته. أين أثار هذا المشروع جدلا كبيرا بين أوساط التقاد والمثقفين العرب للاختلاف حول مبررات وجوده كبديل مقترح للنقد الأدبي، لا سيما مع القول بموته وعدم مواءمته للزاهن الثقافي.

- 2- لقد اشتغل الدكتور 'عبد الله الغدائي' على ما يمكن أن نسميه تفكيك الثقافة العربية، مؤكداً على أن عيوبها تعود إلى التسق الشعري ممثلاً في القصيدة حيث نتج عن هذا "التسق" مفهوم 'الفحل الشعري' و'الطاغية السياسي' وبالتالي. وقد عدّ فحول الشعراء العرب أصناماً يمثلون هذا 'التسق الفحولي الذكوري'.
- 3- قد أعلن بميلاد مشروعه هذا عن موت النقد الأدبي؛ لأنه يُررّ التصوص الأدبية وطابعها البلاغي والجمالي، وبالتالي فهو لم يُعد مؤهلاً لكشف الأنساق الثقافية التي شوّهت الثقافة العربية.
- 4- وجود رؤية نقدية فلسفية مُغيرة تُعبّر عن التحولات الحاصلة في مجال 'ما بعد الحداثة'، خصوصاً ما تعلّق منها بتجاوز المركزية والأحادية، صوب الاختلاف والتنوّع مع التأكيد على وجوب توجيه الثقافات ومن ثمّ البحث في ما صار يُعرف بالهامش الثقافي، وهذا ما كان قد أغفله النقد الأدبي سابقاً.
- 5- هذا الباحث يفتح الثغرات (الفجوات) في الثقافة العربية، ويُعدّد منافذه إلى القديم لقراءته بأدوات حديثة تزاوج بين التراث، الحداثة والمعاصرة.
- 6- قد أضاف هذا الدكتور مصطلح (التسق) إلى العناصر الستة للتمودج اللغوي؛ لذلك فإنّ هذا التحول في الفعل النقدي يُعدّ نقلة نوعية وهذا يُحسب له.
- 7- تبين هذا الباحث أنّ الشعر وحده يتحمّل وزر ما لحق بالشخصية العربية من عيوب، ذلك أنّه جعل منها شخصيّة شعرية. فالشعراء العرب وحسب وجهة نظره هاته، تميّزت شخصياتهم بالطمع والتناق والأنما المتضخم. ومن هنا أيضاً جاء رفضه العودة للحديث عن "النقد الثقافي" كنظرية ومنهج قبل صدور كتابه.

قائمة المراجع:

- حفاوي بعلي. (2005). مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن. منشورات الاختلاف.
- حمزة الزوزني. ((د.ت)). شرح المعلقات العشر. بيروت: دار مكتبة الحياة.
- سليمان خالد. (2002). عبد الله الغدائي من الخطيئة والتكفير إلى النقد الثقافي دراسة انتقالية. كتاب الرياض.
- سمير خليل. (2012). النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب. (ط1، المحرر) بيروت لبنان: دار الجواهري.
- ضياء الكعبي. (2005). السرد العربي القديم/الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل. القاهرة: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- عبد الله الغدائي. (2001). قراءة في الأنساق الثقافية العربية. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
- عبد الله الغدائي. (2006). الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشرّحية، النظرية والتطبيق. (ط6، المحرر) بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
- عبد الله الغدائي. (2009). القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
- عبد الله الغدائي، عبد النبي اصطيف. (2004). نقد ثقافي أم نقد أدبي؟ دمشق: دار الفكر.
- عبد الوهاب بوجدية. (2000). القصد في الغيرية. مجلّة قضايا إسلامية معاصرة، خ22.
- عليه النجار. (2011). الأنساق المضرة بين النقد الأدبي والنقد الثقافي. مجلّة كلية التربية الأساسية.
- فاطمة أرزويل. (1987). ملامح نسائية. بيروت، لبنان: نشر الفنك.
- لينش فلسنت. (2000). النقد الأدبي الأمريكي. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة.
- مطاع صفدي. (1986). ندوة "الفكر اغري ومشكلة المنهج". مجلّة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، ع42، يونيو.
- يوسف عليات. (2005). التحليل الثقافي "قراءة في الأنساق الثقافية العربية. المغرب: المركز الثقافي العربي.